صفحة الأدب الانكليزي

پرسي شـــلي

Percy - Shelley

بقلم خليل جمعه الطوال

لشلي فكرةٌ متوقدةٌ ، وعاطفةٌ ذائبةٌ ، بل قلب يجيش بالوجدان الحي ، ونبع يتفجر بالشعور الصادق ، فقد كان شاعراً من أفذاذ الشعراء مشبوب المخيلة ، وكاتباً متضلعاً من الكتابة ، نظم وكان لا يزال في غضارة الصبى ، عديدَ القصائد التي ما زلنا نطالعها ، فندرس فيها مثال الحياة الأعلى ، وكمال النفس الأسمى ، ونمق كثير المقالات التي ما زالت ، ونحن نتصفحها ، تحدث في مشاعرنا ضروباً شتى من التأثير والانفعال ، فلا عجب إذا كتب لشعره الخلود والبقاء ، وسجل لاسمه صفحة حافلةً بجليل الأثر في سجل الزمن وتاريخ الأدباء

توفي شلي ، وكان لا يزالُ من العمر في مُقتبله ، وقد أقبل الأدباءُ على أشعاره يتـــدارسونها ، وهرع النقاد الى عيوبه وسقطاته يستقصونها ، فما كان لأولئك وإن أعياهم الدرس أن يبلغوا شأو غايتـه ، ولا لهؤلاء وإن أعماهم التغرض أن يضعوا من مقدار عظمته . لقد اختلفت فيه المذاهب وتناحرت عليه الآراء ، فمنهم من نسيَ أو تناسى وفاته البا كرة وحياته القصيرة ، وراح يبحث في أشعاره عن آية القدر وأعجوبة الزمن ، فلما لم يجدها تناوله بألسنة حداد ورحضه بشتى الأحكام الجائرة ، بعد أن خضَّل جدثه بوابل من المثالب الجارفة ، التي يترفع عنها الأدباء وتنبو عن سماعها آذان الحكماء ، وبعد أن نال من سمعته وحط من مكانته ما شاءت له رغائبه وسولت له أهواؤه

وتُمثل لهذا النفر من الرجال الذين أعماهم التغرضُ المقوت « بوليم هزلت » ولوليم هذا مكانة في الأدب ، مرموقة بالأنظار ، محفوفة بالاحترام والوقار ، وخليقة بمدم التحامل السفيه ، وبالأعراض عن التشيع الكريه . ومنهم من أسدل على هفواته — وجلّ من لا يهفو — سترَ الجهل وقناعَ التجاهل تشيعاً للرجل لا للحق ، وراح ينشد آياته البينات ، ويتغنى بأشعاره النيرات ، كتوماس أرنولد ، وكان من معاصريه ومناصريه . وهكذا فقد كانوا فيه جميعاً بين نائل من كرامته لم يسلم من الاسراف والتحذلق ، أو مطنبٍ في مدحه لم يسلم من آفة الغلو والاغراق

وكم نود لو أنّ لنا من صائب النظر في مهنة النقد ما نعمد به الى مؤلفاته — وهي خير ما بقي لنا من آثاره التي تترجم عن آرائه ، ونتبينَ بين غثها وسمينها مقدارَ عبقريته ، وحقيقةَ نفسيته ، بعد أن بَقِي طِيلة هذه المدة مجهول الهوية مكتوم الطوية ، ونرجع بذلك فيصل الحكم الى نصابه ، وحسام الحقيقة الى قرابه

أما وليس لنا من قدرة النقد ما أسلفنا ، فلا أقل من أن نعرض لحياته الطافحة بالألغاز والمبهمات جهد المستطاع وغاية الميسور آملين فيما نقرره أن نبلغ جادة الصواب

مولده وأسرته

ولد پرسي شلي في الرابع من شهر أغسطس لعام ١٧٩٢ ، وقضى طفولته في لندن تعصف به الهمومُ والأحزانُ ، وتنتاشه مخالب البؤس والأشجان ، وذلك لما كان يلقاه من فقر والده ونكد طالعه ، وكان — على ما يصفه لنا السير توماس هوج في كتابه — يرى الخلق سوى الخَلق ذا عينين نجلاوين ، هزيل الجسم أزهره ، نائيء المفاصل كبيرها ، جعدى شعر الرأس قصيره ، وضاءَ البشرة ، جميل الأنف ، مليح الفم ، أمرد باسر الوجه ، تعلو غضونَ حاجبيه القطبين مِنْ شدة ما تجرعه من كأس الحياة المريرة سحابةٌ من الحزن ، ولذا كان يكره دور الملاهي وينفر من الحانات . ويروى أنه كان بالغاً من الطول حد التحدب ، ومن الجمال درجة التأنث ، حتى إن منظره ليملك القلب ويستهوي الخاطرَ . وكان دائماً يحدب على المستضعفين ويرفق بالفقراء والمساكين ، ويثور على كيد أعدائه الظالمين

شلي والمعري

جاء شلي فكأنما كان مجيئه ريحاً هادئة أذكت سعير تلك النار التي قدح المعري بزناده شرارها ، وتعهد بآرائه ضرامها ، والتي لا تزال تحدث ثورة في الرأي واضطراباً في العقيدة .

جاء شلى ، وكان ذلك الصوت الذى أهاب به المعرى فى ربوع بغداد ، وبطاح سورية ، وأرز لبنان — البلاد التى اختلف اليها المعرى فى أسفاره — لما يتلاش ، فرجع فى بلاد الغرب دوى صداه ، الذى امتد من جبال « بنّسين » فى انكلترا ، إلى جبال الألب فى ايطاليا ، والذى انفجر فى « ورنهام » — محل مولد شلى — فسار منها إلى مدينة روما ، ثم تلاشى بين أمواج خليج « بيزا » المصطخبة

لقد كان كلاهما روحاً سابحة فى عالم الخيال ، ونفساً تضطرب بين أنواء الشك واليقين . بل كان كلاهما ثورة شعواء على العرف والعادات والتقاليد ، ومن أشد الناس سخرية بالدين ، وزراية بما اطمأن اليه الخلقُ من إنابة الصالحين

لقد كان شلى ملحداً لا يؤمن بالوحدانية ولا بالحساب ، كما كان المعرى يسخر من وعيد الآخرة والثواب ؛ وهل لغير الشك أن يملى على المعرى قوله

لو جاءَ من أهل البلى مخبر سألت عن قوم وأرخت
هل فاز بالجنة عمالها ؟ ؟ وهل ثوى فى النار «نوبخت»

أو قوله :

زعموا أننى سأرجع شرخاً كيف بى كيف بى وذاك التماسى
وأزور الجنان أحبر فيها بعد طول الهمود فى الأرماس ؟

أم هل كان شلى فى كتابه الذى أرسله إلى « جون جسبورن » من بيزا عام ١٨٢٢ ، والذى جاءت فيه هذه العبارات الآتية [1]

It Seems to be a mere Superstition anol a fallacy That after sisety years, seffering here; we were to be Wasted alive far Sixty millian mare in hell. etc

أى : (إنه لمن الخرافة ومحض السفسطة ، أن نعتقد بأن الانسان الذى يقضى ستين عاما من الحياة المريرة سيذهب (بعد موته) ليقضى ستين مليوناً من السنين وهو يشتوى حياً بنيران جهنم الوّاقة) هل هذا إلا صورة عن المعرى فى قوله :

أموتٌ ثم حشر ثم نشر حديث خرافة يا أمَّ عمرو ؟

أو عن قوله :

خذ المرآة واستعرض نجوماً تمر بعظم الأرى المنثور

تدل على الحمام بغير شك ولكن لا تدل على النشور

وهل لغير روح أبى العلاء فى قوله :

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

وقوله :

لو كان جسمك متروكا بهيئته
— بعد التلاف — طمعنا فى تلافيه

أن تملى على شلى قصيدته الخالدة « Epipsychidion » التى ينكر فى بعض أبياتها لا نشور الأجسام فحسب ، بل بقاء الروح أيضاً . إذ يقول [1] :

« إن روح الانسان تتلاشى داخل قلبه وهو فى القبر كما يخبو نور مصباح طُمر فى باطن الأرض ضمن زجاجته . أما جوهر الخلود الذى ينير بسماتنا بشعاع الأمل ، فانه يتبدد ويتشمث فى عالم الأزلية : واللانهاية . »

ولم نذهب بعيداً فى المقابلة والاستدلال ونظرة واحدة الى رسالة شلى التى نشرها عام ١٨١١ تحت عنوان ضرورة الألحاد The necessity of atheism فطرد من جامعة اكسفورد بسببها ، ترينا بأنها ليست إلا نسخة عن « رسالة الغفران » لأبى العلاء المعرى ، لا تختلف عنها إلا فى اللغة والأسلوب !

لقد أنكر كلاهما كثيراً من العقائد والمذاهب ، نالا من مرارة النقد ولاذع التقريع ما لم تكسر الأيام من حدته

أضف الى اشتراكهما فى الرأى والعقيدة ائتلافهما فى المزاج وفى نوع المعيشة الزاهدة الوادعة ، وترفعهما عن إيذاء الغير وإسرافهما فى عمل البر . وكل ما يختلفان فيه — إن صح هذا الادعاء — هو أن المعرى يعترف بالوحدانية وينكر البعث بينما شلى ينكر البعث والوحدانية

شلى وبيرون

لا نكاد نمر بصفحة من حياة شلى إلا ويتردد فيها ذكر اللورد « بيرون » فقد كان رِنْده وصديقه ، ومن الذين شهدوا إحراق جثته على خليج بيزا . فلا ندحة لنا عن أن نعرض

(١) راجع كتاب Shelley prase صفحة ١٧٤

(١) راجع ص ٦٤ من كتاب Shelley poetry مطبعة : كلارندن اكسفورد سنة ١٩٣١

لسيرتهما معاً ولو بشيء من الايجاز

لقد كان كلاهما من شعراء العصر الفكتوري المجيدين ، ومن دعاة الحركة الابتداعية المبرزين ، عاشا من الزمن فى فترة واحدة ، الا أنهما لم يجريا فى حلبة واحدة من ميادين الشعر والأدب فيعرف أى الاثنين يحرز قصب السبق فيها ؛ فبينا نرى شـلى ينزع فى قصائده ، نزعة أبى العلاء المعرى ، ويسـير وإياه على غرار واحد فى الحكم والهوى ، وفى التمرد على البيئة والتقاليـد ، نرى أن اللورد بيرون فى قصائده يتفق مع امرىء القيس فى أشعاره ولا سيا فى معلقته الشهيرة

فقد كان كلٌ منهما فى جميع ما يكتب إنما يعبر قبل كل شىء عن عواطفه الخاصة ، ويسرد ما كان فى حياته الماجنة من ضروب العبث والاستهتار ، ومن لذعات الغزل الفاحش والافتخار . حتى قيل فى بيرون : « إن حياته كانت محور نظمه ، وقصائده فيها أحسن شعره » فشخصيته كأمير وابن أسرة عريقة فى المجد والحسب تظهر فى أشعاره ، ظهور شخصية امرىء القيس كملك وابن ملك ، وكشاب مسترسل فى الشهوات والملذات فى معلقته

وهناك فرق آخر بين شلى وبيرون : ذلك أن شلى كان يعتمد فى نظمه على التصورات الخيالة : Imagination بينا كان بيرون يعتمد على ذوب عاطفته وادراكه للأمور العقلية Intelectual ولعل ما بينهما من هذه الاختلافات يعزى إلى تباين طريقة معيشتهما ، ناهيك ما للوراثة من كبير الأثر ، فقد نشأ بيرون تحت ظلال النعمة الوارفة ، وهو يتقلب على فراش السعادة والرخاء ، ويرتشف سلاف الخمر ورحيق المناء . فانكب على الملاهى والمنكرات ، وتمرغ فى حمأة الدعارة والموبقات ؛ حتى لقد كان يقاد من أهوائه بشعرة ، ويلبى لشهواته كل دعوة . وهكذا ترعرع دون أن يصطدم من الأيام بما يفثأ من جذوة جنونه المتوقدة ، أو يفل من شباة نفسه المتحفزة ، حتى ولا وجد من الأهل يداً صارمة حكيمة تقسو عليـه وتكبح من جماح شهواته الثائرة ، وحياته الماجنة ، بينا نشأ شلى وهو يقاسى من شظف العيش ألواناً ، ومن الاهل ذلاً وهواناً ، ومن التعس أنواعاً وأشكالا ، ثم اصطدم من الأيام الكاسرة بما تشيب له النواصى وتهتز لهوله الجبال الرواسى . فشحنت المصاعب قلبه بتيار الثورة ، وبذرت المصائب فى صدره بذور التمرد

شعره ودواوينه :

لم يكن شلى بالشاعر الذى يترقب هبوبَ العاطفة الشاعرية فينتضحها فى قالب من السبك اللفظى ، وحسن الأداء ، يذكى بهما الحس ، ويرهف السمع ، ويجمل صـدر القارىء أو السامع يجيش بتلك الحماسة التى اعتلج بها فؤاده واغتمت لها قلبه ، بل كان كثيراً ما يعتسف النظمَ على غير استعداد من عواطفه ، ويَستكره خياله استكراهاً ، على أن على عليه قصيدة شعرية توائم رغبته وإرادته ، ولـكنها لا تشبع حسه وخياله ، فكانت تجىء ملتوية المعنى ملتاثة التعبير ، لا شىء فيها من ابتكار الفكرة ، وجمال العاطفة . ولقـد كان معظم أشعاره التى نظمها فى ميعة الصبى وشرخ الشباب تدور فى جلتها حول محور من الخيال الفسل والمعنى المبتذل ، ولم يبلغ من الشعر درجة تثير كامن العواطف إلا فى ضرب واحد من ضروبه ، أعنى به باب الفناء (Suries) ولئن كان من أبطال هذا الباب وفرسانه ، فانه لم يبلغ ذروة الشاعرية العليا فيه إلا فى قصيدتين غنائيتين فقط ، وهما : ملكة الجنيات ، queen mab ، وروميتس غير المحدود Promethus Tunbaund

أما الأولى — ملكة الجنيات — فقـد نظمها عام ١٨١٣ وهى تحمل بين أسطرها جراثيم الثورة والتمرد على جميع النظم الدينية والمدنيـة ، إذ كان لا يراها إلا سداً منيعاً يحول دون تحقيق مثل الحياة الأعلى . وقد تنبأ فيها عن ذلك العصر الذهبى الذى يتكئ على أشرف الفضائل وأسمى المبادىء ، ودعا الناس اليه بقوة ، بعد أن حثهم على أن يهدموا جميع مايعترض طريقهم من التقاليد القديمة والعادات الذميمة

أما الثانية ، بروميتس غير المحدود « Promethus Unbaund فقد وضع لحمتها فى انكلترا ونسج بردتها فى روما بعـد هجرته اليها بسنوات قلائل . وهى غرة قصائده ؛ وأعملها فى إذكاء الحس ، وصقل العواطف ، واستثارة كامن الشعور

(للبحث بقية) حنبل محمد الغزال